| | |
|---|---|
| العنوان: | خطاب المحبة ضد خطاب التوحش : قضايا الحب و مكانة المرأة في طوق الحمامة لابن حزم |
| المصدر: | مجلة موارد |
| الناشر: | جامعة سوسة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية |
| المؤلف الرئيسي: | الزهراني، معجب |
| المجلد/العدد: | ع 10 |
| محكمة: | نعم |
| التاريخ الميلادي: | 2005 |
| الصفحات: | 49 - 74 |
| رقم MD: | 361736 |
| نوع المحتوى: | بحوث ومقالات |
| اللغة: | Arabic |
| قواعد المعلومات: | AraBase, HumanIndex |
| مواضيع: | التوحش في الأدبالعربيالعلاقات ، الأدب في الحب ، العاطفيةالعربيالأندلسي، العصر ، الأدب في المرأة ، كتاب طوق الحمامة456 ت ، أحمد بن علي ، حزم ابن ، هـالأندلسي الأدب ، |
| رابط: | http://search.mandumah.com/Record/361736 |

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

الزهراني، معجب. (2005). خطاب المحبة ضد خطاب التوحش: قضايا الحب و مكانة المرأة في طوق الحمامة لابن حزم.مجلة موارد، ع 4910 ، 74 - مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/361736

إسلوب MLA

الزهراني، معجب. "خطاب المحبة ضد خطاب التوحش: قضايا الحب و مكانة المرأة في طوق الحمامة لابن حزم".مجلة مواردع 49 :(2005) 10 - 74. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/361736

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

# خطاب المحبة ضد خطاب التوحش
# قضايا الحب ومكانة المرأة في "طوق الحمامة" لابن حزم

معجب الزهراني*

**ملخص البحث**

يكرس ابن حزم كتابه "طوق الحمامة" للكشف عن أبعاد علاقات المحبة باعتبارها منظومة معرفية وفكرية وأخلاقية متكاملة تحدّد معنى جوهرياً من معاني وجود الإنسان . ورغم أن الرؤية الدينية للكاتب تمثل المرجعية الأهم للكتابة في الظاهر إلا أن المرجعيات الأخرى حاضرة مهيمنة في عمق الخطاب بحيث لا يعود من الممكن تفهمه والحوار معه إلا في إطار دوائر تأويلية أعمق وأشمل من دائرة الرؤية الدينية – الفقهية . هذا الموقف الذهني المتفتح للإمام ابن حزم هو الذي يجعل صورة المرأة تقدم هنا في أبعاد دلالية إيجابية تبلغ ذروة تجليها عندما تكون المرأة طرفاً في علاقة المحبة بالمعنى الإيروتيكي أو "الشهواني" وليس بالمعنى المجازي المثالي فحسب . ولعل تجربة الحياة الغنية لهذا "الفقيه العاشق" هي التي جعلته يشارك مشاركة فعالة في تطوير "خطاب المحبة" في التراث العربي الإسلامي . وتتجلى أهمية هذا الفكر من هذا المنظور ومن منظور إنساني عام إذا ما قارناه بما كتبه الغزالي عن المرأة في كتاب " التبر المسبوك في نصيحة الملوك" . فهذا الفقيه الذي يلقب "الإمام" و"حجة الإسلام" لا يذكر المرأة إلا مقترنة بسلسلة لا تكاد تنتهي من القيم السلبية ولذا اعتبرناه نموذجاً بارزاً لـ "فكر التوحش" الذي خصصنا له دراسة سابقة . هكذا يتحدد الهدف البعيد للمقاربة الراهنة بالكشف عن تعدد واختلاف الخطابات الفكرية حول المرأة والإنسان والعالم والكون في تراثنا العربي الإسلامي ، وهو تعدد لا يجهله ويتجاهله إلا من يريد تحويله من فكر إنساني نسبي متفتح إلى إيديولوجيا سلطوية مطلقة ومغلقة في الوقت نفسه .

---

* جامعة الملك سعود – كلية الآداب–

## 1- مدخل عام :

يعتبر كتاب"طوق الحمامة" في الألفة والآلاف" للفقيه الأديب أبي محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم (384-456هـ/994-1064م) نموذجاً بارزاً لخطاب المحبة والفكر الإنساني المتصل به في الثقافة العربية الإسلامية[1]. فالمؤلف يجتهد ويبدع وهو يقارب موضوع الحب من منظور شمولي يطال مجمل علاقات الإنسان الفرد بالآخر والعالم والكون .

وإذا كان الكاتب قد ركز الجهد وفصل الخطاب تفصيلاً جميلاً في تجليات هذه العلاقة بين الرجل والمرأة فما ذلك إلا لأن هذا هو الموضوع المركزي للكتابة . فرغم أن المحبة أنواع ومراتب كثيرة عنده إلا أن الدلالة القاعدية أو "الحقيقية" لهذا المفهوم عادة ما تنصرف في العربية ، وغيرها من اللغات ، إلى مجال هذه العلاقة .

هذا المظهر الفكري الشمولي هو ما تريد هذه المقاربة التوقف عنده ، والحوار معه للكشف عن أهم أبعاده الدلالية ومرجعياته وآثاره العملية السلوكية في المجتمع ، وهنا تحديداً تبرز المكانة العالية للمرأة في فكر ابن حزم وكتابته .

في دراسة سابقة لتصورات المرأة عند أبي حامد الغزالي بيّنا إلى أي مدى يمثل الخطاب العام لهذا الإمام و"حجة الإسلام" نموذجاً قوياً لما أسميناه "فكر التوحش" ، ونعني به الفكر الذي يشوه صورة المرأة في المخيال الجماعي العام إذ يقدمها بانتظام كما لو كانت جنساً حقيراً وخطيراً بطبعه وجبلته[2]. وفي هذه المقاربة نضع خطاب ابن حزم مقابل خطاب الغزالي لنلاحظ مدى الاختلاف الذي يبلغ حد التناقض العميق بين فقيهين بارزين ينتميان

---

[1] نحيل هنا إلى نسخة "طوق الحمامة" التي حققها محمد محمد عبد اللطيف ومحمد عبد المنعم خفاجي وإبراهيم إبراهيم هلال ، ونشرتها المكتبة الحسينية المصرية بميدان الأزهر ، القاهرة 1395هـ-1975م (ط1) وتقع في 176 صفحة ، والإحالة إلى النص ستكون في متن الدراسة .

[2] نعني باستراتيجيات الكتابة جملة الاختيارات الشكلية والأسلوبية التي يباشرها الكاتب عن وعي وقصد أثناء عملية إنجاز النص وعادة ما يكون هدفها الأعم والأبعد كسب ثقة القارئ النموذجي والتأثير الفعال في القارئ المعتاد .

إلى مرجعية ثقافية ــ حضارية واحدة لكن تجارب الحياة وأشكال الوعي الخاصة بكل منهما جعلت علاقات "الانفصال" بين فكريهما أكثر وأعمق من علاقات الاتصال . هنا تحديداً يمكننا صوغ الفرضيات الأولية للبحث بأمل التمكن من تعميقها وتطويرها في الفقرات اللاحقة .

فمن جهة أولى ، يبدو خطاب المحبة بمختلف أشكاله وتوجهاته وأزمنته خطاباً غنياً في تراثنا العربي لكنه لم ينل ما يستحقه من البحث ليتحول إلى جزء من المنظومات الفكرية والأخلاقية المعترف بها والقابلة للتعمق والتطور باستمرار. وما كتب قديماً وحديثاً عن أدبيات الغزل أو فن "النسيب" في المدونة الشعرية لا يكفي ، بل قد لا يعتد به كثيراً في هذا المقام لأنه لم يؤسس على قواعد معرفية متينة ولم تستثمر فيه المقولات والمفاهيم الفلسفية والأخلاقية العامة التي افتقدها باستمرار خطاب النقد الأدبي التقليدي فيما كان يعالج القضية في حدود"الغرض الشعري" وبلاغيات القول الشعري فحسب[3].

من جهة ثانية ، نزعم أن الثقافات الأبوية الذكورية المهيمنة في مجتمعاتنا التقليدية بالأمس واليوم عززت تمهميش ذلك الخطاب فظل خطاباً مشبوهاً ومشوهاً بسبب أحادية الرؤية المتحيزة ضد المرأة وكذلك بسبب الحضور المكثف لمفاهيم كالعيب والعار والحرام والخطأ .. عند معالجة الحب من هذا المنظور الضيق والمختل بمعنى ما .

من هنا تتأكد أهمية كتاب مثل "طوق الحمامة" المنجز من قبل فقيه محافظ تقي ورع لكنه يطرح موضوع الحب من منظور ذهني وعاطفي متفتح وجريء باعتباره جزءاً لا ينفصل عن تجربة الحياة الواقعية السوية للأغلبية العظمى من أفراد أي مجتمع ، وبغض النظر عن مقولات العرق والموطن واللغة والملة والجنس والمرتبة الاجتماعية .

إننا هنا أمام موضوع من " تلك الموضوعات الفكرية العريقة التي لم تتبلور يوماً في منظومة دقيقة متفردة ، لكنها شكلت ، مع ذلك ، الفلسفة التلقائية لأولئك الذين لم يكونوا فلاسفة احتراف" كما يقول ميشيل فوكو[4]. وعليه ، فإن الحوار مع خطاباتها التي تحكي بعض أخبارها وأفكارها وآثارها التي نادراً ما يعترف بها كما يليق بها وبالحياة هو حوار

---

[3] الدراسة ألقيت في البحرين بداية عام 2001م وهي في سبيلها للطبع والنشر في مجلة متخصصة .

[4] كثيرة هي الدراسات عن فن النسيب أو "الغزل" في الأدب العربي ، لكننا لا نبني عليها ولا نحيل إليها لأن هذه المقاربة ذات طبيعة فكرية تتجاوز النقد الأدبي بمفهومه الشائع المشار إليه هنا .

مع "تلك الضوضاء الجانبية التي تثيرها الكتابة فتختفي بسرعة ولا تحصل على صفة الأثر، وحتى إن حصلت عليها فإنها ما تلبث أن تجد نفسها وقد نزعت عنها" كما يقول المفكر ذاته وكأنما هو يتحدث عن "طوق الحمامة" وأمثاله من الكتابات المختلفة عن .. والمخالفة للثقافات الرسمية السائدة [5] .

إنه لمن الدال أبلغ دلالة في هذا المقام ألا نجد اهتماماً يذكر بفكر المحبة في "طوق الحمامة" لدى سالم يفوت وهو ينجز أهم كتاب فكري عن ابن حزم في اعتقادنا ، ونعني به كتابه " ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس"[6]. فإهمال هذا البعد الذي ربما كان من مفاتيح فكر ابن حزم في مجمله ، ومن قبل باحث نقدي عقلاني صارم ، لا يمكن تبريره إلا باعتباره أثراً لوطأة تلك العوامل الابستمولوجية - الأيدلوجية التي تهمل موضوعاً كهذا الموضوع الجسدي الحميمي ذي الأهمية القصوى في حياة الفرد والمجتمع والأمة والإنسان مطلقاً! .

ولتنويع سبل الوصول إلى هذا الهدف العام سنستعير من ابن حزم بعض اتراتيجياته[7] فنقسم القراءة إلى أبواب ثلاثة تسبقها وتختمها فقرات هي بمثابة مداخل إلى النص ومسالك للخروج منه إلى سياقات أعم وأشمل ، وذلك على النحو التالي :

- الباب الأول وفيه نناقش موضوعات تتعلق بالشكل العام للخطاب من حيث طرائق بناء جزئياته والتأليف بينها وفق خطوات إجرائية منهاجية تبين مدى تعلق الكاتب بموضوعه وحرصه على تبليغ رسالة الحب إلى قراءة بأنجع الوسائل .
- في باب ثان نحاول تحديد وتحليل أهم المضامين المعرفية والفكرية للخطاب ووصلها بمرجعياتها الدينية والفلسفية والاجتماعية التي تمثلها الكاتب بفضل

---

[5] ميشيل فوكو . حفريات المعرفة ــ ترجمة سالم يفوت ــ المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، 1987 م (الطبعة الثانية) ص126 .

[6] م. فوكو . ص126(مرجع سابق) .

[7] سالم يفوت ، ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس . المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1986م.(525 صفحة) والكتاب أطروحة دكتوراه معمقة حقاً أنجزها الباحث تحت إشراف محمد عابد الجابري وأجيزت عام 1985كما أورده في الكلمة التوضيحية ــ التوثيقية أول الكتاب (ص4) .

تحصيله العلمي الجاد وبفضل تجربة الحب الشخصية التي عاشها في مرحلة من حياته ثم عاد ليستثمرها بشكل خلاق في "طوق الحمامة" .

- في الباب الثالث سنجتهد في بيان أهمية الخطاب ومضامينه من منظور سياقات إنتاجه وتداوله التي يتعلق بعضها بالماضي ويتصل البعض الآخر منها بحاضر المقاربة الراهنة حيث لا تزال علاقات الرجل بالمرأة واحدة من أبرز القضايا الإشكالية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية كما يلح عليه كثير من الباحثين والباحثات من مختلف التخصصات والمشارب .

**باب الخطاب :**

**أ- الكتابة العاشقة :**

يدرك كل من اهتم بكتابات ابن حزم في مقام معرفي ما أن "طوق الحمامة" يكاد يمثل مفارقة لافتة للنظر في سياق إنتاجه الفكري الغزير والذي دار في معظمه حول القضايا الدينية المعهودة في زمنه . فمن غير الشائع المعهود أن يتصدى فقيه مجتهد في منزلة ابن حزم صاحب المذهب المتميز في القراءة والتأويل للخوض في موضوع الحب الذي قد يبدو لكثيرين بالأمس واليوم موضوعاً خفيفاً وعابثاً ، بل وربما غير لائق بأمثاله[8].هذه المفارقة السياقية العامة هي التي أغرت بعض الباحثين المستشرقين بإلحاق الكاتب وكتابته هذه بالتحديد بسياقات اجتماعية وثقافية أجنبية ، غريبة ــ مسيحية ، ألح عليها بعض الباحثين الإسبان بشكل خاص[9].

لكن القراءة المتأنية لا تبرر تأويلات بعيدة ، وغير بريئة ربما ، كهذه والسبب البسيط والعميق في الوقت نفسه هو أن الكتابة ذاتها تعلن انتماءاتها إلى سياقاتها العربية وذلك لا في مستوى اللغة وشروط الإنتاج والتلقي ومرجعيات الأفكار والتصورات العامة فحسب وإنما أيضاً من حيث الشكل وطريقة التأليف وأساليب الكتابة كما سنلاحظ .

---

[8] نعرف جيداً أن ابن قيم الجوزية ألف كتاباً في هذا الباب هو"روض المحبين" لكن مقاربته للموضوع في مجمله لا ترقى إلى المستوى الفكري الشمولي لـ "طوق الحمامة" ، وهذا ما سنفرد له بحثاً مستقلاً إن شاء الله.

[9] هذا ما يورده سالم يفوت عن البزنث ودوزي ، أما آسين بلاثيوس فلا يتفق معهما في هذا الرأي كما يبينه الباحث (ص38) .

فالكاتب ولد وتربى خلال مرحلة الطفولة في أسرة ذات مكانة اجتماعية وثقافية وسياسية عالية بقرطبة التي كانت واحدة من أهم حواضر العالم الإسلامـــي على مدى قـــرون[10]. وحينما بدأت الفتن واحتدت الصراعات بين الأسر والطوائف المتنفذة في الأندلس والمغرب مع نهايات القرن الرابع الهجري (399هـــ) توالت النكبات والمآسي على هذه الأسرة ، وغيرها ، فلجأ ابن حزم الشاب إلى "شاطبة" حيث قرر فيما يبدو قطع علاقاته مع النخب السياسية والانقطاع للبحث والتأليف. نعم لقد لحق به الأذى فسجن لفترة ، وأحرقت كتبه لوفائه لحكام قرطبة السابقين وللأمويين عموماً ، لكن البيئة الثقافية ظلت مزدهرة بالنسبة له ولأمثاله من النخب المعرفية ، وهذا هو ما يفسر اتصال بحثه وإنتاجه بالرغم من تلك التوترات السياسية العنيفة التي ستقضي لاحقاً على أمراء الطوائف ويضيع "الفردوس الأندلسي" من الجميع كما نعلم . ضمن هذا السياق المفعم بالصراعات وبمختلف أشكال التوترات تلقى ابن حزم رسالة من أحد أصدقائه الخلص، ولعله ابن شهيد[11] يطلب منه فيها تأليف كتاب عن "الحب" فلبى الطلب بحكم علاقة الصداقة المتينة بينهما وهي عنده مرتبة من مراتب المحبة وشكل من أشكالها . يقول المؤلف بهذا الصدد .

".. وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا متفنّناً ، لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكر ، فبدرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته".

فمن الواضح الجلي في ظاهر العبارة أن الكتاب يندرج ضمن تقاليد "أدب الرسائل" الذي كان شائعاً مزدهراً طوال تاريخ الثقافة العربية الإسلامية كما يعرفه المختصون في الأدب وغيره من المجالات . ثم إن المؤلف ينص هنا على أن كتابته ستكون على سبيل الحقيقة وستعتمد على المحفوظ من الأخبـــار والحكايات "الواقعية" من جهة ، وعلى سعة الباع في تجربة الحب التي عاشها وعاناها ابن حزم ذاته من جهة أخرى . بعد هذا ما إن

---

[10] سالم يفوت ، ص 40 وما بعدها (مرجع سابق) .

[11] هذا الاحتمال تذهب إليه الباحثة لويز أ. جيفين في دراستها المعمقة "أدب الحب وطوق الحمامة لابن حزم" وهي منشورة في الكتاب الموسوعي "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس" ، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي ، مركز الدراسات الوحدة العربية ،بيروت ، 1998، ص603-632.

نقرأ قول الباحثة لويز أ. جيفين عن كون "طوق الحمامة" جاء " استجابة حقيقية لتكليف الصديق وليس استجابة لتقليد أدبي شكلي سائد" [12]، حتى نلاحظ على الفور أن القول هنا يعبر عن نصف الحقيقة فقط بما أن الاستجابة مزدوجة بمعنى ما كما يلاحظ .

فطلب الصديق غير المحدد بالاسم أو اللقب أو الكنية ليس سوى الحافز الخارجي المصرح به للكتابة ، أما الحافز العميق فأكثر تنوعاً وعمقاً وإن كانت الكتابة ذاتها هي التي تومىء إليه وفق منطقها الخاص . فالصديق ما طلب من صديقه الكتابة في الموضوع إلا وهو يدرك جيداً أن ابن حزم خير من يمكنه إنجاز مهمة كهذه وإلا لبادر هو إلى ذلك بنفسه . أما الكاتب فما تكلف الأمر وتكفل به إلا استجابة لهوى في نفسه فضلاً عن وفائه بحقوق الصداقة التي لا تسمح أصلاً بتحول الطلب من مقام الالتماس وحسن الظن إلى مقام الأمر والتكليف بمعنى إلزام المرسل إليه بالاستجابة من دون تردد أو إرادة .

ولعل مما يعزز وجاهة هذا التأويل معرفياً أن فعلي "كلفتني" و"تكلفته" اللذين يردان في أول العبارة وآخرها مشتقان من الجذر" ك ل ف" وهو متصل أوثق الاتصال بدلالة "الحب" الذي ينطوي بالضرورة على الكَلَف والتكلّف والكُلْفة بما أنه حال مفعمة بالتوتر والمعاناة سواء اتجه نحو التحقق والسعادة واللذة أو نحو الحرمان والشقاء والمرض وحتى الموت ربما! [13].

**ب) الموضوع المتفلت والمنهاجية الصارمة :**

حينما نتجاوز الشكل الخارجي العام لـ "طوق الحمامة" الرسالة ـ الكتاب سنلاحظ أن الخطاب مزيج من التأملات الفكرية ، والمرويات الخبرية القديمة أو المعاصرة للكاتب ، والبوح الجريء بمشاعر وعواطف ذاتية حميمية تتصل أقوى الاتصال بتجربة الحب التي خبرها المؤلف وانشغل عنها لفترة طويلة وها هي الفرصة تواتيه فيبادر إلى تدوينها ضمن مؤلف يحاول الإحاطة بمختلف التجارب الإنسانية الغنية المتنوعة ولابد . هذا المزيج الخطابي يتآلف فيما بينه ويتناغم بفضل قضية "الحب" التي تستقطب تلك التأملات العميقة وتلك الأخبار والحكايات الطريفة وتلك المشاعر الذاتية الجياشة الجريئة والمفعمة بنبرة

---

[12] ل. أ. جيفين ، ص605 (م.س) .

[13] راجع مادة "كلف" في لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، مج 9 ص307.

الحميمية والصدق. وبما أن الكاتب قد ألف الكتابة المنهجية الصارمة في مجال العلوم الشرعية فكان من الطبيعي والمنطقي أن يخضع كتابته في الحب لمقتضيات المنهاج المحكم قدر الممكن ، خاصة وأن الأمر يتعلق بموضوع حيوي يكاد يتفلت من كل القيود الذهنية الصارمة والاعتبارات الأخلاقية السائدة لاتصاله بأمور الجسد والشهوة كما لا يخفى ! .

هكذا قسم ابن حزم رسالته ــ كتابه إلى ثلاثين بابا ، منها عشرة في أصول الحب، وإثنا عشر في أعراضه وصفاته ، وستة في الآفات الداخلة عليه ، وأخيراً يغلق النص ويختتمه ببابين في "قبح المعصية" و"فضل التعفف" (ص132-167). ولهذا التقسيم الدقيق وظيفتان لا تنفصل إحداهما عن الأخرى في مستوى إلا لتتصل بها في المستويات العميقة للخطاب . فهو يتيح للمؤلف فرصة مثلى لمقاربة الموضوع من مختلف جهاته ووجوهه وذلك بعد تفكيكه إلى موضوعات فرعية لا تلبث أن تفضي إلى موضوعات أصغر تحاول الذات الكاتبة الإحاطة بها بما أوتيت من قدرة ذهنية ومتعة جسدية عاطفية . كذلك تتيح استراتيجية تأليف كهذه فرصة قوية للسيطرة على موضوع يغري بالبوح والاستطراد والتدفق والتشعب مما يستدعي الحذر من فلتات القلم وزلاته إذ يترجم عن شجون القلب وأحاسيس الجسد المنبثقة عن حال لا إرادية وغير عقلانية في جوهرها الأصلي وفي تجلياتها الواقعية[14].

فالفقيه المحافظ صاحب الفكر النقدي الاجتهادي الخلاق أوشك أن يذهب ضحية الحب في مطلع شبابه حيث شكلت وفاة جاريته الجميلة التي تحولت إلى عشيقة له "صدمة قوية عليه لأنه أقام بعد وفاتها سبعة أشهر لا يغير ثيابه ولا يفتر له دمع"[15]. ومما زاد في وطأة الصدمة العاطفية عليه أنها جاءت في سياق تلك الاضطرابات المأسوية ، ولم تأت وحدها حيث "خلال حصار قرطبة من قبل العامريين توفي أخوه الأكبر أبو بكر ،وبعدها بسنة توفي الوزير أحمد والد فقيهنا سنة 402هـ ، وبعد عام أو أقل ، توفيت جاريته نعم

---

[14] يعي المؤلف جيداً الطبيعة المتفلتة للموضوع ولذا ينيه إليه بانتظام في عبارات مثل "الحب أو له هزل وآخره جد" القلوب بيد الله ، الحب داء عياء.. الخ .

[15] سالم يفوت ، ص44 .

التي كلف بها" كما يوضحه سالم يفوت [16] .وتجربة كهذه لابد أن تظل آثارها حية مؤثرة لا في ذاكرة الشخص العاشق فقط ، وإنما في "ذاكرة الجسد" الذي لا ينسى كما يقول فرويد[17]. فبحسب نظرية ابن حزم في الحب لابد أن موت أحد طرفي هذه العلاقة يعني أن الطرف الآخر فقد جزءاً حميمياً من نفسه ، والكتابة عن تجربة مؤلمة كهذه هي في العمق استعادة لسلسلة من الأحاسيس والمشاعر والانفعالات التي لا يمكن السيطرة عليها كلياً من قبل الذات الكاتبة .

نعم لقد نجا المؤلف من صدمة تلك التجربة العنيفة وانفصل عنها زمنياً بعض الانفصال وها هو يبذل ما في وسعه من الجهد لبلورة الرأي وتعميق الفكرة وتنويع الأخبار والحكايات الطريفة المسلية . لكنه يعي قبل غيره أن الكلمات والعبارات ذاتها لابد أن تثير الشجون وتوقظ المشاعر ، وبخاصة إذ يتعلق الأمر بتجربة الحب الأولى والأهم ، تلك التجربة التي كانت نهايتها الفاجعة بمثابة اللحظة الفاصلة بين حياة الحب واللذة والسعادة وحياة الفقد والألم والشقاء كما أشير إليه آنفاً .

ولتحقيق التوازن بين ما هو خارجي "موضوعي – غيري" وما هو داخلي "ذاتي – حميمي" يلجأ المؤلف ، فضلاً عن تلك التقسيمات المنهاجية ، إلى خيارات أسلوبية لا أقل دلالة وفعالية من منظور اجرائيات السيطرة على الموضوع المتفلت هذا . فابن حزم يستعمل الأسلوب النثري السردي لإعلان الآراء والأفكار وتدعيمها بما يتناسب معها من الأخبار والحكايات المروية في معظمها عن أناس مشهورين من معاصريه يسميهم الكاتب في كل مرة لا يجد في تسميتهم حرجاً عليه أو عليهم كما يقول (ص3). لكنه يستعمل في مقاطع أخرى الأسلوب الشعري للتعبير عن انفعالاته وعواطفه الذاتية التي توقظها لعبة الكتابة بانتظام ، وبما أنه لم يعد من الممكن كبتها أو تجاهلها في هذا المقام يحاول المؤلف

---

[16] كانت هذه الوفيات المتلاحقة بسبب وباء الطاعون الذي فتك بقرطبة خلال الحصار الذي فرضه عليها البربر بزعامة سليمان المستعين عام 401 .

[17] بحسب النظرية الفرويدية ما إن تقمع وتحرم غرائز الجسد حتى تتحول إلى لا وعي الشخص لتظل آثارها فعالة مدى الحياة سواء عبر الأحلام أو الانفعالات الحادة .. وكثير من الأمراض العضوية أو النفسية متصلة بها وهذا معنى كون الجسد لا ينسى.

نظمها وإعلانها بهذه الطريقة الشعرية الفنية المقننة بحيث تنظم البوح وتدوزن الانفعـــالات فلا تأتي فجة أوناشزة عن مقام الكتابة العام .

ولعل مما يعمق دلالات مفهوم التوازن هنا أن الذات الكاتبة كثيراً ما تتدخل لتوجه بعض العبارات والمقاطع النثرية إلى التعبير المباشر عن تجربة الذات الفردية العاشقة مثلما توجه بعض التعبيرات الشعرية إلى ترجمة عواطف الآخرين وانفعالاتهم المتصلة بتجاربهم الخاصة وكأنما هي جزء حميمي أو امتداد طبيعي لتجربة الذات الفردية ! . يقول المؤلـــف بهذا الصدد :

"وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته فلا تنكر أنت ومن رآها علـــي أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر . وأكثر من ذلك فإن إخواني يجشموني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم ، وكفـــاني أنـــي ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه وناسبه إلي" (ص3) .

فالشعر، ترجمان الذات ولسان حالها بامتياز، يصبح هنا لسان حال الذوات الأخرى التي تحولت إلى قرائن داخلية حميمية للذات الكاتبة ، إن بفضل علاقات الصداقة أو بفضل تجربة الحب التي توحد بين كل التجارب الإنسانية المتشاكلة المتواصلة ، ولا حرج في هذا كله ما دام هو مذهب المتحلين بقول الشعر والمتخلقين بأخلاق الحب كما يقول ابن حزم .

إننا هنا أمام علاقات تفاعل حواري منتج بين أسلوبين يحـــاول المؤلـــف التـــأليف بينهما ليعبرا معاً عن أصوات متنوعة مختلفة في الظاهر متشاكلة متناغمة في العمق بمـــا أنها أصوات محبين كان لابد من حضورها في رسالة حب كهذه . أحياناً يكـــون التفاعـــل وجدانياً مشبوباً فينبثق عنه قول شعري عالي القيمة الجمالية والصدقية العاطفية الانفعالية ، وأحيانا أخرى يكون التفاعل ذهنياً متكلفاً فيُعبّر عنه بشعر ينحو نحـــو الـــنظم المـــتقن ولا يتجاوز هذه العتبة والمرتبة إذ لعله مجرد وفاء وتعاطف مع أولئك الأصدقاء الذين يجشمون الكاتب عناء "القول الشعري على طرائقهم ومذاهبم" كما يقول(ص3) .

**3- باب المعنى :**

أ- **الحب المجازي والحب الحقيقي :** سبق لبعض الباحثين والباحثات أن تنـــاولوا بالعرض والتحليل أهم مضامين "طوق الحمامة" ولذا لا نرى فائدة من تكرار الجهد من هذا

المنظور تحديداً [18] . . عوضا عن ذلك ، وكما نبهنا إليه منذ البداية ، سنحاول توجيه مقاربتنا للآراء والأفكار والمواقف ووجهات النظر في هذا النص إلى ما يساعد على كشف منظوماتها وأنساقها العميقة عسى أن نضيف جديداً إلى جهود الآخرين. فالمؤلف ذاته ينبه قارئه المفترض إلى أن كتابته مسكونة بهاجس التفرد وموجهة بمقصدية الاجتهاد والتجديد والإضافة إذ يكتب :

".. ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا أتحلّى بحليٍ مستعار" (ص3) .

فأخبار الحب وحكاياته كثيرة ، لكنها لا تبدو للفقيه المجتهد والأديب المبدع كافية فيما هو يحاول تعميق البحث والنظر في قضية معرفية فكرية وجدانية لم يكن في استطاعة "الأعراب البسطاء" الخوض فيها من هذا المنظور الشمولي المعمق وإن عايشها وعاناها بعضهم بصدق وعمق . كذلك ينبه الكاتب إلى أن اختلاف سبيله ومنهاجه عن غيره ، من قدماء ومعاصرين ، يعود إلى نزعة اجتهادية أصيلة في كتابته عموماً ، مما يعني أنه يحاول أن يكون على رأس مذهب خاص متفرد في مجال الحب كما في مجال الفقه أو الأخلاق [19] . ثم إن في هذا القول ما يدل على وعي صاحبنا بأن تجربة الحب كما خبرها دراية ومعايشة هي تجربة خاصة في بعد من أبعادها وبالتالي فلا يمكن التعبير عنها والتعريف بها إلا بلسان الحال وقلم الذات كما ألمحنا إليه من قبل .

حينما يتصدى ابن حزم لتحديد "ماهية الحب" لا يخفي عليه أن غيره ممن سبقوه قد اختلفوا في الأمر وبالتالي لا سبيل إلى تعريفٍ "جامع مانع" هنا ولذا يجتهد برأيه الخاص فيقول: " والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع .. وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال

---

[18] نجترح مصطلح " الاستعارة التوليدية" قياساً على مصطلح "الجملة التوليدية" عند تشومسكي ، ونعني به البنية المجازية التي تتولد عنها معظم البنى المجازية في نص أدبي ما. والمصطلح إجرائي جداً في نظراً ونأمل تعميق النظر فيه مستقبلاً .

[19] بالإضافة إلى دراسة ل.أ. جيفين الآنفة الذكر انظر كذلك الدراسة المهمة لعبد الله بنعيسى : المرأة الأندلسية في القرن الحادي عشر من خلال رسالة طوق الحمامة لابن حزم القرطبي .مجلة الدراسات مغاربية ، عدد10 ،سنة1999. ص3 وما بعدها (بين أيدينا النص الفرنسي)

والانفصال" . ثم يستطرد ويفصل : " والشكل دأباً يستدعي شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد ، التنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها الصافي الخفيف" (ص7).

فالخلفية الفكرية الفلسفية لهذا الرأي أو "المذهب" تلوح عن بعد وتكاد تقترب منا كل القرب عند التركيز على "العنصر الرفيع" الذي يحيل إلى نظرية العناصر الأربعة ــ الهواء والنار والتراب والماء ــ التي شاعت بين العلماء المسلمين بعد نقلها عن الفلسفة اليونانية كما نعلم [20] . لكن ابن حزم لا يتبنى هذه الفكرة في مجملها لأن العنصر الرفيع عنده لابد أن يتصل بالخالق عز وجل الذي خلق الإنسان ونفخ فيه من روحه ، ولهذا يتمم الكاتب الفقيه عبارته بالآية الكريمة : {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} ــ الآية 189من سورة الأعراف ــ (ص8) . من هنا تحديداً نتبين أهمية التحول من مستوى الفكر النظري العام والمجرد إلى مستوى الخبرة الواقعية المحسوسة التي يعلنها التركيب التوكيدي "وقد علمنا أن .. " , وهو تحول ينبئ عن حرص المؤلف على بناء رأيه وتدعيمه بما يمكن أن يرى ويدرك في "عالم الظاهر" والتجارب المعاشة . فمفاهيم المشاكلة والمماثلة والمجانسة والتنافر والموافقة والنزاع والتشابه تُختبر دلالاتها لا في نسق منطقي نظري فحسب بل أيضاً في مستوى منطق الواقع الغني بالتجارب إذ يتحول إلى موضوع للنظر والتأمل والاستدلال .

ولعل تعلق المؤلف بمنطق الواقع والتجربة هو الذي جعله ينتقل بسرعة إلى دور "الصورة الجسدية" في توليد الحب ، إذ لا يخفي عليه أن الخالق عز وجل قد خلق الإنسان عموماً في صورة حسنة ، لكن جمالية الصور المتحققة في أفراد الناس تظل مسألة نسبية ولذا لا يعول عليها في تعليل الحب . فنحن هنا أمام قضية سابقة لأوانها إذ سيعود إليها المؤلف في موضع لاحق مخصص لعلل الحب وعوارضه ، لكنه يوردها هنا كيما يدعم أهمية تجربة الحياة اليومية إذ طالما كشفت له ولغيره أن "الحب" في معناه العام لا يمكن تعريفه بالحد " الجامع المانع" ولا يمكن بلوغ كل أسراره . وفي كل الأحوال فإن مفهوم

---

[20] تتجلى نزعة الاستقلالية والتميز عند ابن حزم في مذهبه الظاهري المعروف ، ولكن أيضاً فيما كتبه في الأخلاقيات وفكر الحب مما يعني أن خطابه العمومي يشكل منظومة متآلفة في مجمله .

"الصورة الجسدية" سيلعب الدور الأهم في تحديد مفهوم "الحب الحقيقي" المتصل بالجسد أولاً وبعد كل شيء كما سيلاحظ عند تحليل الفقرة التالية من المقطع ذاته .

فحينما ينتقل المؤلف إلى بيان مراتب الحب يبدأ حديثه كفقيه محافظ تقي له مركز اجتماعي ومعرفي يضطره لوضع "محبة المتحابين في الله عز وجل" في المقام الأعلى. وتليها محبة القرابة ، ومحبة الألفة ، ومحبة المعرفة ، ومحبة البر، ومحبة الطمع في الجاه، ومحبة الاجتماع على السر ، ومحبة بلوغ اللذة ، وأخيراً تأتي "محبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس "كما يقول (ص8). وتأمل هذه التراتبية التفاضلية من منظور أعمق يكشف لنا أن المرتبة الأخيرة هي الأعلى منزلةً في الحقيقة لأن "محبة العشق" هي الوحيدة التي تجسد "ماهية الحب" وتستغرق دلالاته العميقة التي ناقشها في بداية الباب ثم ها هو يحيل إليها في منتصفه تقريباً!.

فالمؤلف يتحدث في نهاية الجملة بلسان العاشق العارف بالفروق الدقيقة بين أشكال متنوعة من المحبة يمكن تفهمها وتعليلها من منظورات شرعية وأخلاقية واجتماعية ومصلحية ، وتلك المحبة المتعالية عن كل تفسير إذ لا سبب أو علة لها غير "اتصال النفوس" في عالم العناصر الرفيعة كما قال مسبقاً . ومما يعزز هذا الفهم من جهتنا أن المؤلف ذاته يقول في عبارة تالية :" وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ، وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فاترة ببعدها ، حاشى محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت . وإنك لتجد الإنسان السالي برغمه وذا السن المتناهية ، إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين" (ص8). ولعله من الواضح هنا ، وبخاصة في المقطع الأخير من العبارة ، أن الكتابة عن المحبة قد أنعشت ذكريات الكاتب وأثارت شجونه وهيجت حنينه فراح يكتب براحة وصبوة ومحبة لا تزال آثارها حية في كلماته وعباراته التي تترجم عن أحوال جسده وليس عن اجتهادات عقله أوعن مخزونات ذاكرته فقط ! .من هذا المنظور نتفهم تلك المفارقة التي تعكس منطق الدلالة فتقلب مراتب المحبة بهذا الشكل القوي المفاجئ . فهي مفارقة حميدة خلاّقة في هذا الموضع لأنها تدل في العمق على مظاهر انسجام مع الذات وصدق مع القارئ المفترض ، وبالأخص مع القارئ النموذجي الذي يدرك ويتفهم أن الكاتب يكتب في مقامات مختلفة لكل

منها مقاله المناسب [21] لكنه يظل منسجماً مع ذاته وكتابته كل الإنسجام .هكذا لا يعود أمام القراءة الحوارية الجادة والحميمية سوى مقاربة مفهوم المحبة في كل مقام بما يليق به من المفاهيم المتباينة أو المختلفة في المستوى المباشر والمتآلفة كل التآلف في مستوى البنية العميقة للنص . فابن حزم يبدو في مقطع نموذجي مصغر كهذا المقطع مثالاً للفقيه المسلم الورع التقي ، وللمحب الأفلاطوني المثالي ، وللمحب المسيحي الزاهد ، كما يذهب إليه دوزي ، وامتداداً خلاقاً لتقاليد الحب العذري في الثقافة العربية الدنيوية ، وممثلاً لثقافة المدينة الأندلسية المتفتحة على كل أشكال الحب الحسي[22]. ومع كل هذا يظل وفياً كل الوفاء لذاته الفردية التي جربت الحب وخبرت ملذاته وآلامه وها هي تكتبها فيما هي تكتب عن المحبة بهذا المعنى الشمولي . من هذا المنظور ذاته نزعم أن أهم دلالة للمقطع في مجمله تتمثل في تعديد وتكثير أشكال المحبة بحيث لا تكاد تشذ عنها علاقة من علاقات التواصل والتفاعل في المجال الاجتماعي الخاص والعام . فالحب أصل من أصول الخلق ، والإنسان مطلقاً معرض أو مهيأ بجبلته أو بفطرته لأن يكون محباً ومحبوباً ، واختلاف الأفراد في درجات المحبة والغايات منها أمر نسبي يعود إلى اختلاف الثقافات بما تنطوي عليه من منظومات فكرية وتشريعية وأخلاقية لابد أنها متنوعة مختلفة حتى في المجتمع الواحد . وإذا ما كنا نميز بين أشكال "المحبة المجازية" و"المحبة الحقيقية" فما مرد التمييز هنا إرادة الحكم التفاضلي وإنما ضرورة المقاربة المعرفية لنص يتمحور في مجمله حول " محبة العشق" فيما بين الرجل والمرأة تحديداً ومن هنا يُبرّرُ الحضور الكثيف للجسد في مجمل النص .

**ب) تعلق الحب الحقيقي بالجسد :**

لاحظنا في فقرة سابقة أن المؤلف يستحضر مفهوم "الصورة الجسدية" ليفرق بين المستوى النظري التجريدي للحب إذ يتولد عن "اتصال النفوس" بالمعنى المتعالي للنفس هنا ، والمستوى الواقعي الإنساني حيث يتحقق الحب فيما بين أفراد ذوي صور جسدية متفاوتة الحسن والجمال ويظل كله في مرتبة الحب الحقيقي . وفي مقطع لاحق من الباب الأول

---

[21] لم يتبن ابن حزم نظريات فلسفية محددة لكن المؤكد أنه اطلع جيداً على ما كان شائعاً في زمنه من كتابات في هذا المجال ولذا يحيل إلى نظرية العناصر هنا وإلى أفلاطون في مواضع أخرى من طوق الحمامة .

[22] تدل المفارقة هنا على قلق ما في التصور المنطقي ،أما في المستوى الأدبي والأخلاقي فتدل على الصدق مع الذات والقارئ ولذا نعتبرها إيجابية أو حميدة من هذا المنظور .

ذاته، يعود ابن حزم إلى مفهوم الصورة ليغنيه بأبعاد دلالية ووظيفية جديدة لا تلبث أن تغني وتُبرز مفهوم الحب في مستواه الواقعي من منظورات متنوعة جديدة . فالصور الجسدية ، الحسنة هي "العلة التي توقع الحب أبداً" كما يقول ، وتفسيره أوتعليله للأمر " أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهي إذا رأت بعضها تشبثت فيه ، فإن ميزت وراءها أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميز وراءها من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة"(ص10) .

والكاتب الفقيه لا يخفي عليه أن الإنسان خلق في أحسن تقويم ، وأن صورته العامة ككائن هي صورة حسنة كما تنص عليه آيات كثيرة تنوي في خلفية العبارة أعلاه . لكنه يعي كذات عاقلة عارفة مثقفة ، أن أفراد البشر منهم الجميل والقبيح في شكله أو صورته ، ولهذا فإن الصور الجسدية الأجمل والأكثر تناسباً وانسجاماً هي الأكثر جاذبية لتلك النفس التي ما إن "تراها" حتى تميل إليها وتتثبت فيها كما تتثبت في التصاوير الصناعية ــ الجمالية أو الفنية ــ المتقنة ، وعن هذا الإنجذاب لا بد أن يتولد حب ما . هنا تحديداً يدخل عنصر التشاكل الروحي ليفرق في حضوره أو غيابه بين حب الشهوة العابرة والحب الحقيقي الدائم والمتجدد في الزمن وفي ذاكرة الجسد كما في ذاكرة الشخص .

والذي يهمنا في هذا المقام هو تراجع منظومات المفاهيم النظرية التجريدية وكثافة حضور شبكة المفاهيم المتصلة بالجسد الإنساني وأهمها في اعتقادنا الصورة الجسدية العامة والعين والشهوة كما يلاحظ . فهذه المفاهيم العضوية الحسية تتدخل بقوة لإعادة تعريف الحب ليصبح "داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ وعلة مشتهاه لا يود سليمها البرء ولا يتمنى الإفاقة ، يزين للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه ما كان يصعب عنده ، حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة" (ص12) . فهذه العبارة المصاغة وفق منطق الخطاب الأدبي المليء بالاستعارات والكنايات والمحسنات البديعية تدور دلالاتها المباشرة والعميقة حول الجسد باعتباره فضاء الحب ومجال تحققه العملي الحسي . وسواء اتخذ الحب معنى المرض العضال أو معنى الدواء الناجع فإنه في هذا المستوى يتحول إلى كيمياء سرية سحرية تظهر آثارها جلية محسوسة في كل أعضاء الجسد، ويبلغ مفعولها القويّ حد تحويل الطبائع المركبة والجبلاّت المخلوقة حتى لكأن الأمر

يتعلق بظاهرة تغير قوانين الخلق فضلاً عن قدرتها على إلغاء أو تحييد منطق العقل ![23].
إننا هنا أمام تعبيرات انفعالية لا يمكن تفهمها بدقة وعمق إلا باعتبارها لغة جسد يترجم عن مشاعره وأحاسيسه ،عن مواجعه ومسراته وألمه ولذته وتعبه وراحته ، بالطريقة الوحيدة التي تناسبه وهي هذه الطريقة الحسية الانفعالية تحديداً

وحينما ينتقل المؤلف إلى "علامات الحب" تزداد شبكة المفاهيم الجسدية الحسية تنوعاً وتحديداً . فالعين بوابة الحب ، ونظراتها من أقوى علاماته . وملامح الوجه المنبسطة أو المنقبضة علامة أخرى تتبع النظر بالضرورة مثلها مثل اليد التي تستلذ بلمس المحبوب واللسان الذي ينطلق بالحديث في حضرة من يحب ، والأذن التي تنصت بتوق وشوق إلى صوت الحبيب . فكلها آلات حواس تكون في أوج اشتغالها بعد أن تنجز العين وظيفتها . وحينما يورد المؤلف أخباراً وحكايات عمن يحب بالسماع ومن يحب في النوم ومن يحب بالوصف ، يوردها على سبيل المعرفة والتعريف لكنه لا يبدي ثقة في أي منها [24] . فهو لا يثق حتى بالحب الذي يتولد عن نظرة واحدة عابرة ، لأن الحب الحقيقي عنده يتولد مع مداومة النظر ولذا فهو وحدة الذي يبقي على المدى الزمني الطويل . يقول بهذا الخصوص: " وإني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعله إلا ضرباً من الشهوة" ، ثم يضيف عن ذاته " وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كل جد وهزل وكذلك أنا في السلو والترقي ، فما نسيت ودّاً لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء" (ص27).

---

[23] بالإضافة إلى الدراستين المحال إليهما آنفا بصدد وضعيات المرأة الأندلسية انظر الدراسة المهمة جداً لـ ماريا . ج. فيغيرا بعنوان : أصلح للمعالي عن المنزلة الاجتماعية لنساء الأندلس ."الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس" ص.ص 995-1013(م.س) .

[24] قد تبدو الفكرة مناقضة لمقولة عدم تحول الطبائع وسنن الخلق ، لكن المؤلف يستعمل لغة مجازية هنا، ولعل مفهوم "الطبائع" يتصل بالميول والعادات المكتسبة ، ثم إن الحب هو أيضاً من مبادئ الخلق أصلاً وعلة وأثراً .

لقد لاحظنا من قبل أن مراتب المحبة لا تنطوي كلها على معنى حقيقي أصيل للحب بمعنى العشق، وهنا أيضاً نلاحظ أن علل الحب ليست كلها عللاً موثوقة لذلك النمط من الحب الذي يبدأ من النظر، أو من "بوابة الجسد" ليحتل الجسد كله ويمكث فيه بقية حياته أثراً نفسياً وعضوياً لا يمكن محوه. فالعين نافذة ترى الصور الخارجية الحسنة المتقنة، وعبرها تدخل هذه الصور إلى الذهن ومنه إلى سائر أعضاء الجسد وفضاءاته الداخلية حيث تستقر وتلصق بالأحشاء وتعلق بالكبد. وعندئذ فقط تبدأ في تأثيرها القوي حد العنف على جسد العاشق/ الجسد العاشق الذي ينفعل بها ويخضع لها من دون تبصر أومن غير روية أو تفكير أو إرادة من قبل الشخص !.

ومن العلامات الشواهد على الأهمية القصوى للعين الناظرة الرائية أن المحبوب ما إن يبتعد أو يغيب عن مجال رؤية المحب العاشق حتى يتحول الجسد كله إلى كينونة منطوية نحيلة أرِقةً مرهقة وكأنه علامة في سلبيها إلى الامحاء من الفضاء الزمني والمكاني[25]. هذا ولعل "العين" هنا تستحق بحثاً منفرداً يتقصى معانيها ووظائفها بشكل أكثر تفصيلاً وعمقاً ، لكننا نكتفي بإيراد شاهد أخير على أهميتها الاستثنائية من منظور تواصلي يختزل ويكثف جل ما قيل أعلاه . ففي باب "الإشارة بالعين" يستطرد المؤلف في بيان وظائفها ولغتها التي قد تنوب عن أي لغة لفظية أو إشارية أخرى فيقول :

" وأعلم أن العين تنوب عن الرسل ، ويدرك بها المراد ، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً ، وهي رائدة النفس الصادقة ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات" (ص35) .

**ج- شهوة المحبة/ حاجة الجسد ومتعته :**

لاحظنا آنفاً أن ابن حزم لا يقيم كبير اعتبار لحب طلب الشهوة العابرة إذ يدرك ، وهو العارف الخبير ، أن الأمر يتعلق هنا بغريزة فطرية يشترك فيها الإنسان مع سائر الحيوان. وحتى إذ يتميز هذا الكائن العاقل بكون طلب الشهوة عنده مقترن في الأغلب بـــ

---

[25] طوق الحمامة مليء بأخبار كهذه والمؤلف لا يثق في صحة بعضها ولا في وجاهته الأخلاقية والشرعية كأخبار المجون والفسق والشذوذ الجنسي التي يوردها من هذا المنظور الأدبي ــ المعرفي فقط .

"الاستحسان الجسدي" كما يقول المؤلف ، إلا أن المؤلف يميز في مقام ثالث شهوة المحب العاشق عن شهوات غيره بما ينسجم مع فكره وتجربته. فهو يؤكد أن "استطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان هو سر كل شهوة ومعناها الحقيقي" ، أما إذا غلبت الشهوة واتصلت ففي هذا دليل على "اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقاً" كما يقول (ص29).

هكذا يلاحظ أن العين ، على أهميتها القصوى ، قد تخدع أو تنخدع بالصورة الخارجية بعكس الجسد الذي لابد أن يصدق لأنه الدليل الذي لا يكذب ذاته . فشهوته الحسية، أو لذته الشهوية ، قد تتحول إلى علامة أكيدة على "الحب الحقيقي" وذلك حينما تتصل وتتجدد في الجسد وبه ، وفي بعديه الطبيعي الفيزيقي والنفساني الروحاني أو "الميتافيزيقي".

لقد دخل ابن حزم هذه التجربة وخبرها بشكل شرعي مع جاريته وحبيبته ، وبالتالي فإن مرجعية القول أعلاه تستمد من تجربة هذا الجسد الذي هو الدليل الأوكد على وجود الكائن في الزمن والمكان . وإذا كان يتحدث عن شهوة الجسد وحاجاته بهذه اللغة الجريئة والسوية في الوقت نفسه فما ذلك إلا لثقته في أن حديثاً كهذا لا يتنافي مع الشرع الإسلامي الذي يعترف بحقوق الجسد ولا ينكر الحب متى ما خضع لضوابطه ومعاييره. ولا يخفى على المؤلف أن في هذا الاعتراف ما يميز هذه المرجعية عن المرجعيات الأفلاطونية أوالمسيحية التي تحقر الجسد وتقمع شهواته وإن لم تنجح في إلغائها لأنها جزء من طبيعة الإنسان وعلامة من علامات سويته [26] .

أكثر من ذلك يذهب المؤلف إلى أن متعة الجسد من الأهمية بحيث يمكن أن تفضي إلى "الحب الحقيقي" وبالتالي تكون غاية من غايات المحبة وعلة من عللها ، ودليله على ذلك خبر طريف عن شخص أديب مثقف لكنه قبيح أو غير جذاب الشكل كان "يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه وربما كارهة له" وما إن يباشرها حتى تحبه وتتعلق به والسبب أنه كان "أبطأ الناس إنزالاً" كما يصف نفسه في الخبر(ص31) . وحضور المرأة مهم جداً

---

[26] طوق الحمامة مليء بأخبار كهذه والمؤلف لا يثق في صحة بعضها ولا في وجاهته الأخلاقية والشرعية كأخبار المجون والفسق والشذوذ الجنسي التي يوردها من هذا المنظور الأدبي ــ المعرفي فقط .

هنا لأن ابن حزم يتفهم كون حاجات جسدها ونفسها مماثلة تماماً للرجل ومن هنا وجه الاستدلال بخبرها المتضمن داخل خبر ذلك الشخص . هذا ولعل الفكرة الأهم في الخبر إجمالاً أن المؤلف يستنبط منه ما يشبه القانون العام إذ يقول إن " الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها".(ص31). فالقول هنا يعيد للجسد المحب وحدته وتكامل وظائف أعضائه مادامت الحواس الخارجية "بوابات الجسد ونوافذه" وهذه" الأعضاء الجنسية الحساسة" هي طرقات ومسالك بمثابة الحواس الداخلية التي تتصل هي أيضاً بالنفوس هذا الاتصال الحميمي الفعال[27]. هنا أيضاً يعيدنا القول ذاته إلى تلك الاستعارات الفضائية التي تصل فيما بين النص والجسد الإنساني والمنزل الحميمي الذي يكون الفضاء الأكثر حميمية إذ يسكن فيه محبان يتواصل ويتفاعل جسداهما في مختلف المقامات حتى ليمكن لأحدهما أن يسكن الآخر. فالجسدان العاشقان يصبحان جسداً واحداً لحظة الاتصال ينشد لذة واحدة هي تلك النشوة القصوى التي تتحقق بمعان حسية ونفسانية وروحانية تغني مفاهيم الحب والشهوة بأبعاد دلالية لا تعبر عنها أي لغة أفضل من لغة الجسد ذاته !. هذا كله مما يدل على أن المؤلف الفقيه والخبير بشؤون الحب والكتابة فيه وعنه يدرك جيداً أن شهوة الجسد إذ يكون في مقام الحب الحقيقي هي في التحليل الأخير عود إلى وحدة تلك النفس التي خلق منها الخالق جل وعلا زوجها ليسكن إليها وتسكن إليه وجعل بينهما مودة ورحمة تتصل معانيهما بمعاني الحب ولابد كما ينبه إليه ويذكر به الكاتب منذ البدء .

**4- باب الرسالة :**

**أنسنة خطاب المحبة وفكرها :**

هناك في التراث ، الذي يعرفه ابن حزم جيداً ، أدبيات متنوعة تميز بين لذة النزوة الفحولية الفجة ، ولذة الشهوة العابرة المتغيرة ، ولذة قضاء الوطر والحاجة، ولذة أداء الواجب الشرعي تجاه زوجة غير محبوبة ، واللذة المعنوية الرمزية في علاقات الحب

---

[27] هذه الملاحظة دالة بذاتها على بعد المسافة بني ابن حزم وتلك المعتقدات التي تحقر الجسد وتعتبر شهواته خطيئة أو رذيلة سواء كانت دينية أو دنيوية ، أما ورعه وعفته فهي أخلاقيات إسلامية في المقام الأول كما يلح عليه النص ذاته .

العذري ..الخ[28]. لكن المؤلف يحدثنا هنا عن اللذة الحقيقية المحايثة للحب الحقيقي والدالة على الاتصال العميق بين النفوس والأجساد وهي لذة قصوى لا تتحقق بشكل سويّ إلا بين الرجل والمرأة اللذين تنبني علاقاتهما على المحبة والمساواة بين حقوقهما وواجباتهما في كل مقامات الحياة من حيث المبدأ . إننا هنا أمام نزعة قوية إلى أنسنة الخطاب تتحقق بفضل ثلاثة عوامل مختلفة ومتكاملة بما أنها منبثقة عن النص ذاته ومندمجةً فيه ، خطاباً ورؤية منتجة وموجهة للخطاب .

العامل الأول يتحدد عبر هذه الشبكة المفاهيمية المتصلة في مجملها بالجسد الإنساني بغض النظر عن هويته الذكورية أو الأنثوية ، وهذا الاتصال يدل في مستوى الكتابة على أن الكاتب يتفهم جيداً طبائع الجسد وحاجاته وملذاته وآلامه فيحوله إلى "مختبر عملي" لتقصي مفهوم "الحب" الذي لا يمكن التحقق منه إلا في هذا المستوى . فمفهوم الجسد والمفاهيم المتولدة عنه لا تتحدد بعرق أو جنس أو لغة أو ملة أو مذهب فكري أو أخلاقي ، لأنها ذات دلالات طبيعية وإنسانية عامة مطلقة ، مثلها مثل مفاهيم المحبة والاتصال والتشاكل والتماثل والانسجام .. إذ تطرحها الكتابة في المستوى النظري المجرد أو "المطلق".

العامل الثاني يتعلق بكون تفهم الجسد واحترام حقوقه وحاجاته الحسية والنفسية يبلغ ذروة أعلى عندما يتعلق الأمر بالجسد المسكون بالمحبة . هذا الجسد الذي قد يكون سعيداً أو شقياً، وقد يحقق حبه ضمن أطر قانونية مقبولة شرعاً وخلقاً وعرفاً ، وقد يتمرد ويشط عن كل الأطر، لكنه يظل في مقام الجسد الإنساني الذي ينبغي تفهمه والتعاطف معه مادامت "القلوب بيد الله" وما دام الحب قد يفقد الشخص إرادته وعقله ، وهذا بالتأكيد بعد إنساني آخر للخطاب يتصل بالفكر أو بالرؤية الفلسفية العميقة المنفتحة للإنسان الكاتب قبل وبعد أي شيء ! .

أما العامل الثالث المولّد لنزعة الأنسنة هذه فيتمثل في تصورات الكاتب للمرأة ومواقفه الذهنية والعاطفية تجاهها . فهي تصورات ومواقف تدل على قطيعة عميقة فيما بين

---

[28] هنا تحديداً نلاحظ أهمية مصطلح أو مفهوم "الاستعارة التوليدية" نظرياً وإجرائياً حيث يبرز النص والجسد النزل كُبني متشاكلة مما يدل على نسقية الخطاب والرؤية التي ينبثق ويعبر عنها .

خطابه ونصه من جهة وذلك الخطاب الذكوري الأبوي الفحولي الذي يعاين المرأة من منظور الدونية والاحتقار وربما الخوف والقلق المرضي من جهة أخرى .

إنه لمن اللافت للنظر والمثير للتأمل والإعجاب أن "طوق الحمامة" يكاد يخلو في كل أبوابه ومقاطعه وعباراته من آثار ذلك الخطاب الذي ينمط صورة المرأة وصورة الرجل ليلحق بالأولى سلسلة لا تنتهي من الأفكار والقيم والسلوكيات السلبية كما نعلم[29]. فنحن لا نعثر هنا على باب في كيد النساء ، أو في نقصان عقولهن ، أو في ضعفهن أمام الإغراءات وأشكال الإغواء ،أو في شهواتهن التي لا تقنع أو تشبع ، أو في غير ذلك مما تمتلىء به الثقافة المتحيزة ضد المرأة في تراثنا وفي غيره من التراثات التقليدية المشابهة . لماذا ؟ لأن المؤلف لم يعد يحتكم لشيء من موروثات تلك الثقافة التي عادةً ما تقدم المرأة كجنس بين الإنسان والحيوان ، ولربما قدمت باعتبارها إلى عالم الحيوان أقرب كما تبينه كثير من الدراسات الحديثة في هذا الباب[30]!.

لنقف وقفة عند هذه القضية لنرى كيف يصبح خطاب المحبة الحقيقي عند ابن حزم نقيضاً قوياً مباشراً لخطاب التوحش عند الغزالي ، فهذه إحدى القضايا المركزية للمقاربة الراهنة، ولقد أشرنا من قبل إلى أنها القضية الأهم بالنسبة لنا اليوم وغدا .

لقد لاحظ سالم يفوت أن ابن حزم في مجمل كتاباته " ينفي النقص عن المرأة " ، وحينما يناقش التشريعات التي تمنعها من الصلاة والصوم والحج وقت الدورة الشهرية أو تلك التي تنص على أن شهادة امرأتين بمقابل شهادة رجل واحد يعقب الفقيه المتخصص في

---

[29] كثيرة هي الدراسات التي بدأت تعالج موضوعات كهذه ، وسواء باللغة العربية أو بلغات أجنبية ، ولعل كتابات فاطمة المرنيسي وفريق "مقاربات" المغاربي يكفي دليلاً على جدية البحوث الحديثة بهذا الصدد . انظر كذلك : ليلي أحمد "المرأة والجنوسة في الإسلام" المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة 1919م (ترجمة منى إبراهيم وهالة كمال) .

[30] الحقيقة أن الخطابات التي تعاين المرأة من هذا المنظور الدوني ــ العدائي شائعة في جل الثقافات التقليدية، والفرق اليوم يتحدد بمدى تغير الوضعيات الاجتماعية الثقافية باتجاه القطيعة مع الماضي لا غير .

علوم الدين التقليدية بقوله الصريح" وليس هذا بموجب نقصان الفضل ولا نقصان الدين والعقل في غير هذين الوجهين فقط"[31].

من جهتها تلاحظ لويز أ.جيفين في دراستها لموضوع الحب في "طوق الحمامة" أن "النساء يظهرن في هذه التحليلات المتنوعة والعديدة كمحبوبات ومطاردات من قبل محبيهن ، ولكنهن يعاملن بوصفهن مشاركات مساويات للرجال المحبين ، وبطلات تيمهن الحب" . وفي موضع آخر تضيف الباحثة " ويبدو أنه يبجّل الخصائص الإيجابية للنساء كما خبرها في زمنه والمزايا والقدرات التي تمتلكها النساء ، ومع ذلك فإنه يظل صادقاً ، لا جافا ولا قاسياً في نقده (النادر) لنزوعهن إلى الضعف وارتكاب المعاصي" . وبناء على هاتين الملاحظتين المنبثقتين عن قراءة متأنية للنص أعلاه تحديداً تصل الباحثة إلى استنتاج عام مفاده " أن ابن حزم شخص غير مألوف بين الباحثين المسلمين في العصر الوسيط ، لكونه يرفض الرأي الشائع بينهم ،والذي يقول إن الرجال أفضل من النساء[32].

ومع إن هذه الملاحظات والاستنتاجات وجيهة تماماً وتعزز كل التعزيز أطروحة هذه المقاربة إلا أن تفسيرها في المستوي المعرفي يحتاج إلى مزيد من التوسع والتعميق من منظور القراءة الحوارية الراهنة . من هذا المنظور ما إن نحاول تفسير تصورات الكاتب ومواقفة الإيجابية من المرأة في ضوء المعطيات المعروفة عن نشأته وتكوينه المعرفي والفكري ، حتى تبدو أكثر قابليةً للتفهم والتعقل دونما حاجة لإخراج الكاتب وكتابته عن سياقهما الثقافي الخاص كما فعلت هذه الباحثة وغيرها من المستشرقين كما يلاحظ .

**هـ- دور المرأة في أنسنة الخطاب والفكر :**

ولد ابن حزم وعاش طفولته الأولى في بيئة مدينية متفتحة الذهنيات ومتحررة العلاقات نظراً لوضعية التنوع الغني إثنياً ولغوياً وثقافياً الذي كانت تتميز به قرطبة وكل المدن الأندلسية آنذاك . ومما زاد من الأثر الإيجابي لوضعية اجتماعية ــ حضارية عامة كهذه أن أسرة ابن حزم كانت تعتبر من "الخاصة" ، أو النخبة ، في المستويات الثقافية والسياسية والاقتصادية وذلك بفضل خصال أبيه وجهوده التي أوصلته إلى مرتبة الوزارة

---

[31] تشبيه الغزالي للمرأة بالخنزيرة والحية والعقربة والكبلة والفأرة .. يأتي من هذا المنظور كما بيناه في دراستنا المشار إليها آنفاً .

32 سالم يفوت ص 47 . ل.أ. جيفين ، ص 623 (مراجع سابقة) .

ونقلت أسرته الصغيرة من الحياة العادية المتواضعة إلى حياة القصور المترفة. ها هو ابن حيان يصفه بأنه كان "المعقل في زمانه، والراجح في ميزانه ، وأنه هو الذي بنى بيت نفسه برأس رأبية وعمّده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي"[33].

ورغم أن المبالغة في ذكر مناقب القدماء ونزعة تبجيل الآباء والأسلاف مما تعودت عليه الكتابة العربية في مجال السير والتراجم إلا أن جل من كتب عن الأندلس وشخصياتها البارزة يتفقون على المكانة العالية لوالد ابن حزم وأسرته في قرطبة المزدهرة قبيل تلك الفتن المشار إليها آنفا[34].

فقصر الحاكم وخاصته عادة ما يكون مركز الحياة الدنيوية في مجتمع كهذا . فهو الملتقى الأهم للكتاب والأدباء والفنانين، وفيه عادة ما تدور المحاورات والمناظرات وجلسات الطرب ، وكل هذا ضمن شروط "ثقافة المجلس" كما نقلتها إلينا كتابات ذلك العصر وكما حللها بعض الباحثين اليوم[35] . ومع إن ثقافة كهذه تظل ثقافة ذكورية في عمومها ، إذ لم يكن ليسمح للنساء الحرائر بحضورها أو المشاركة فيها ، إلا أن وجود فئة الجواري والإماء والقيان كان يخفف من وطأة هذه الذكورية الثقيلة ، أي أن مشاركة هؤلاء النساء لابد أن تؤنسن المجلس وثقافته بمعنى ما ، خاصة وأن بعضهن يتحولن إلى شخصيات مركزية في هذا المقام إما لجمالهن الفاتن أو لمعارفهن الأدبية العالية أو لطاقاتهن الإبداعية المتميزة[36] . إننا لا نعرف الكثير اليوم عن أنماط حياة الأطفال اليومية في مجتمعات مدينية كهذه إلا انه في حكم المؤكد أنهم كانوا أكثر حرية في التنقل بين مجالس الرجال ومجالس النساء نظراً لحداثة السن وغموض الهوية الطرية لهذه الكائنات الصغيرة البريئة . هكذا كان يمكنها أن تطل عبر تحركاتها الفضولية التي لا تهدأ على أكثر المشاهد حميمية هنا وهناك ، وقد لا

---

[33] نقلا عن سالم يفوت ، ص40 (م.س) .

[34] نزعة تمجيد الآباء والأسلاف دالة في العمق على قوة أثر المعتقدات الأسطورية العتيقة في ثقافة ما .

[35] عن ثقافة المجلس انظر : سعيد يقطين ، المجلس ، الكلام ، الخطاب ، مجلة فصول مج 14 ع4 شتاء 1996م (ص193 وما بعدها) وفي نفس العدد انظر دراسة كمال أبو ديب :"المجلسيات والمقامات والأدب العجائبي) (ص210 وما بعدها)

[36] ماريا . فيغيرا ، وبخاصة ص1012 حيث تقدم سرد إحصائياً عن النساء البارزات في مختلف المجالات .

تدركها بوضوح لكنها لابد أن تتمثلها وتختزنها بطرق شتى كصور وحالات لا تمحي آثارها من الذاكرة أو المخيلة أو الوعي أو الجسد .

في هذه البيئة الغنية مادياً وثقافياً عاش ابن حزم الذي ستتعزز ألفته بالمرأة في هذه المرحلة الخطيرة الأثر في حياة الإنسان مرتين أو بطريقتين . الأولى بحكم رعاية الأم المكثفة للبيت الذي ينشغل عنه الأب ــ الوزير معظم الوقت ولابد . والثانية بحكم مبادرة الأسرة إلى إناطة أمر تعليمه القراءة والكتابة وبعض علوم الأدب واللغة والشريعة إلى "معلمات" لا إلى معلمين رجال . فهذه العملية التربوية التعليمية لابد أن تزرع في الطفل المتعلم مشاعر الإعجاب والاحترام والهيبة والإكبار لهذه المرأة التي تشبه الأم لكن صورتها مختلفة بما أنها هي التي تنقل الطفل من عالم التواصل الحسّي المباشر إلى عالم التواصل الرمزي عبر وسيط اللغة المقروءة ــ المكتوبة . أما حين تمتد هذه العلاقة ليتعلم شخص ذكي فضولي كابن حزم معارف وعلوماً أرقى كماً ونوعاً ، فلا شك أنها ستشكل القواعد المكينة لكثير من تصوراته الإيجابية عن المرأة بحيث تصبح من أهم مكونات وعيه المعرفي وموجهات سلوكه الذهني والعاطفي في حياته اللاحقة كلها[37] .

في مرحلة عمرية تالية ، مرحلة الفتوة والشباب ، ستتصل عمليات تعزيز التصورات والمواقف الإيجابية من المرأة لدى كاتبنا في اتجاه آخر أكثر عمقاً وأبلغ أثراً . ففي هذه المرحلة، وهو في الخامسة عشرة ، دخل ابن حزم الشاب الغني الوسيم المتعلم تجربة الحب مع امرأة ليست من طبقته ومرتبته لكنه سيكتشف أنها قرينة روحه وهوى قلبه وسكن نفسه ومتعة جسده كما فصلنا فيه القول من قبل . نعم ربما أمكن لنا ، ولغيرنا ، تفسير التعلق الذهني ــ العاطفي الشديد لكاتبنا بتلك الجارية ــ الحبيبة إما بالحرمان وقيود الرقابة والتربية المحافظة المتشددة أو بموتها المبكر في ظروف كان فيها الشاب العاشق المراهق في أمس الحاجة إليها كي تخفف عليه من وقعها المأساوي إذ تشاركه مشاعر الحزن والألم بل وتعوضه عنها بمتع تساعده على السلوان والتجاوز ولابد[38].

---

[37] نعتبر هذه المعطيات قواعد مكنية للتصورات الإيجابية عن المرأة نظراً للأثر القوي نفسياً وتربوياً لخبرات كهذه في المراحل الأولى من عمر الإنسان كما نعلم اليوم .

[38] قد نرى اليوم وجهاً إيجابياً لتلك التجربة المأساوية التي عاناها كاتبنا إذ لولاها لما كتب عن الحب بهذه الطريقة الشمولية والحميمية ربما ونحن نعرف الآن أن جل الأعمال الإبداعية العظيمة تتصل بتجارب كهذه .

لكن الأهم من هذا التفسير الوجيه تماماً في إحدى المستويات ، أن مجمل علاقات ابن حزم بالمرأة في طفولته وشبابه لم تكن لتدفع بشخص مثله إلى التعامل مع المرأة والكتابة عنها من منظور الدونية والاحتقار والعداء . فصور المرأة الأم ، والمرأة المربية المعلمة ، والمرأة المحبوبة ، لابد أن تتعاضد هنا لتفضي بالكاتب وأمثاله إلى تمثل ذلك الفكر الإنساني السوي ومحاولة تكريسه ونشره ، وبالأخص في مقام الكتابة عن المحبة بمختلف أشكالها ومراتبها وعللها وغاياتها . وفي كل الأحوال لا شك أن صورة المرأة المحبوبة بكل هذه المعاني هي في العمق صورة من صور الذات عن ذاتها وعالمها وآخريها ، ولا غرابة بعدئذٍ أن يبادر كاتبنا الوفي لذاته وأصدقائه ومحبوبته إلى تأليف رسالة الحب هذه وهو في أوج أزمته الشخصية والعائلية والوطنية. بل لعل هذه الظروف الصعبة ذاتها من أهم دواعي كتابة مثل هذه الرسالة الإنسانية ونشرها عسى أن تسهم في التخفيف من رسائل العنف والعداء المتبادل بين قوى وفئات كان لكل منها خطابه الذي يدعم موقفه ويبرر فعله بما أن حروب الكلام هي جزء لا يتجزأ من حروب الواقع كما لا يخفى على أحد بالأمس واليوم[39].

## خاتمة : فكر المحبة ضد فكر التوحش

حينما نقرأ " طوق الحمامة " باعتباره رسالةً في الحب ورسالةَ حبٍ في الوقت نفسه نتبين مدى حرص المؤلف على دمج كل علاقات المحبة في منظومة فكرية واحدة هي التي يلح عليها الخطاب ويعلي من شأنها . فالقضية ذات أبعاد معرفية ودينية وأخلاقية وأدبية كان لابد من تأطير عناصرها الجزئية ضمن تصور أعم وأشمل هو الذي يضفي على النص في مجمله سمات تماسكه وانسجامه مبنى ومعنى . ونظراً لكون ابن حزم يدرك جيداً أن القراء متنوعوا الأذواق والذهنيات فقد حرص على تنويع أساليب الكتابة ، وتفنن في تقصي وجوه الاختلاف بين التجارب ليقنع كل قاريء بمشروعية الحب على قدر ذوقه

---

[39] بدأت لعبة استثمار الدين في الصراعات السياسية والمذهبية إبان" الفتنة الكبرى" والأمر فيما يتعلق بالخطابات الأخرى كالقانون العام .انظر : تزفتان تودوروف" نحن والاخرون " دار المدى ، دمشق ،1998. ص11من المقدمة (ترجمة ربى محمود) .

وعقله. فمن المنظور الإنساني العام يدرك المؤلف أن علاقات المحبة موجودة في الواقع وتمثل حاجة لكل أحد عند كل أحد ولذا كان لابد من الإعلاء من شأنها كقيمة عليا في مختلف العلاقات الإنسانية. ثم إن الحب من المنظور الشرعي" ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة " ، والكتابة فيه هي " ترويح عن النفس يعين على الحق" ،والكلام عنه " إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللّمم المعفو، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب" كما يقول (ص166) . أما القارئ الذي يمثل السلطة الدينية المتزمتة فليس من المتوقع أن يتقبل من فقيه كابن حزم خطاباً كهذا ، ولذلك يكفي أن يتم تحييده من خلال صيغة حازمة تتمثل في القسم بالله أن المؤلف لم يحل مئزره" على فرج حرام قط" (ص143) .

وخلاصة القول أن ابن حزم كتب عن المحبة بصدق وعمق وبمحبة لأن هدفه تنمية المعرفة بفكر المحبة وتعزيز مواقف التفهم والتعاطف مع المحبين ، ومن ثم المشاركة الفعالة بفكره وأدبه في أنسنة العلاقات فيما بين البشر عوضاً عن التنكر لحاجات فطرية سوية هي من صميم جبلة الإنسان نفساً وجسداً .

إننا نعلم اليوم أن رسائل وكتباً كثيرة قيمة لابن حزم قد ضاعت أو أتلفت ، لكن ما تبقى منها (40 مؤلفاً من 400 تقريباً) ضمن للمؤلف أن يكون حاضراً معنا ومؤثراً فينا أبلغ الأثر وأجمله . وكتاب "طوق الحمامة" الذي حفظت منه نسخة واحدة فقط ، حققت ونشرت وترجمت إلى معظم اللغات الأوروبية ، يعد الأثر الأدبي –الفكري الأهم لابن حزم من هذا المنظور المتسع . فالأثر هنا رسالة محبة مفتوحة على كل القراءات والسياقات الثقافية التي تعرف قيمة الحب وتعترف بأهميتها القصوى في الحياة والكتابة . أما القارئ الذي يسئ الظن والفهم فلن تبلغه رسالة كهذه مهما كان خطابها شفافاً وعميقاً وجميلاً . فحالة الحب ترقق الطبع وتهذب القول والفعل ، بعكس حالات الكره التي توحش الذات وقراءاتها وكتاباتها نظراً لما تولده في الذهن والنفس من إحباطات وسلوكيات عدائية لا يمكن أن تعالجها أي كتابة عاشقة فاتنة كهذه .